المطوع والمطيع

أذكر من ضمن البحوث التي قُدمت في المؤتمر الإفريقي الثالث للطب النفسي في الخرطوم، بحثا للعالم (النيجيري) (البروفسور لامبور) من جامعة « أبادان »، حول العلاقة بين الطب النفسي الحديث، والطب التقليدي الذي يرتكز على الايمان (بالمعالج البلدي)، والثقة بالأعشاب والتعاويذ والأحجبة... وهي ظاهرة متفشية بصورة مذهلة في المجتمعات الإفريقية البدائية، وحتى بعض الأقطار المتحضرة ووسط قطاعات على درجة عالية من الوعي... وقد ربط بين الصلة الروحانية والايمان والمرض النفسي كظاهرة جسدية نفسية في جسم الانسان.

وقدم العالم الياباني (ين يانغ ين)، في مؤتمر لاحق في فيلادلفيا بأمريكا، بحثا حول دور الكاهن في علاج الأمراض النفسية في المجتمع الياباني... وفي المجلة البريطانية للطب النفسي، نشر البروفسور أحمد عكاشة، أستاذ الطب النفسي في جامعة عين شمس، بحثا حول دور التراث والثقافة المحلية في تشكيل الاعراض النفسية في المجتمع المصري.

وخلاصة هذه الأبحاث تدور حول الصراع القائم بين الموروث في البيئة، حول دور (الطب القديم) أو (الفكي) أو (المطوع)، حسب مسميات كل مجتمع، والذي يقوم بدور أصحاب الكرامات وذوي الموهبة، في علاج الأمراض النفسية ومكتسبات العلم الحديث، المتمثلة في العقاقير والجلسات الكهربائية وجراحة المخ الخ...

وباختلاف المدارس الفكرية، يُجمع بعض العلماء على ضرورة الالتقاء في نقطة وسط، من أجل مصلحة المريض... نقطة التقاء لا تفقد العلم هيبته، ولا تسلب المريض ثقته وإيمانه بآيات الله. والواقع أن التجربة أثبتت أن عامل الثقة يقطع نصف الطريق في رحلة العلاج... وأن تعزيز إيمان المريض بحتمية الشفاء، جزء أساسي من (العلاج النفسي)، كما أن تأكيد دور العقاقير الطبية، خطوة هامة في مجال (العلاج الكيميائي)، ولا تناقض ولا تعارض بين القاعدتين... ولكن يجب أن نحذر لحظة عبور خطوط التماس بين محورين أساسيين في العلاقة بين المريض (المطيع)، وبين المعالج (المطوع).

وما من أحد ينكر دور الإيمان، في التعجيل بشفاء المرض النفسي، خاصة اذا كان المعالج على درجة كبيرة من الوعي والايمان والعمل. قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم). صدق الله العظيم فالعلماء من ولاة أمور المؤمنين والمؤمن بعلم العالم... كالحافظ لعهد الله (انما يخشى الله من عباده العلماء). ولكن عندما يتجه العالم بعلمه الى كسب المال بغير حلال... ويتعدى حدود الله فقد ظلم نفسه... فالحلال بيِّن والحرام بيِّن، وما بينهما ظلال الشبهات، وقال تعالى (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون). وقال (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات). ولكن التعاويذ... والبخور... والأحجبة... وقراءة الفنجان... وخطوط الكف... ومطالعة النجوم... كلها محدثة وبدعة... وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

ومن المفارقات التي ولّدت عندي رغبة صادقة في تناول هذا الموضوع، ملاحظة بعض ذوي المريض، الذين يرفضون الانتظار في أقصر صفوف المستشفيات، ولا يستعملون العلاج في أكثر الحالات... هؤلاء أنفسهم، يقطعون المسافات بمشقة الراحلة وطول القافلة... يقبلون ضرب الطفل بالسياط والكي بالنار، وحرمانه الأكل والشراب... ويدفع كل ما ملكته يداه من نفيس مدخراته وحلي زوجاته (للمطوع)، الذي غالبا ما ينصحه بترك العلاج والاكتفاء ببعض التعاويذ. ومع إيماننا المسبق بضرورة الإيمان في

مسألة الشفاء، فإننا نتحفظ في قبول التجاوزات وادعاءات البعض الضارة. وفي الحديث الشريف (ولو يعطى الناس بدعواهم لا دعى رجال أموال قوم ودماءهم. لكن البينة على من ادعى واليمين على من أنكر). وما أكثر الذين يسارعون في إقامة الدعوى... في غياب البينة والحلف بأغلظ الإيمان.

وأسوق شاهد صدق، على حالات أطفال تشقي النفس وتؤرق الضمير، يعانون من مرض (الصرع)، وهو اضطراب فزيولوجي في وظائف المخ، وراثي أو مكتسب بفعل الإصابة أو الحمى أو التسمم، لا يعدي ويستجيب للعلاج الطبي، لفترة تمتد الى ثلاث سنوات، وفي حالات نادرة لجراحة المخ، وهذه آخر انجازات أعظم مستشفيات عالم اليوم. ولكن الكثيرين سافروا للخارج طلبا للعلاج، فعادوا يحملون العقاقير القديمة في عبوات جديدة، وفاتورة فاخرة تضاف الى البنود الجديدة في ميزانية وزارة الصحة... واذا كانت الوزارة في سبيل تقنين هذا الوضع، فإن ميزانية (المطوع) في حياة الأسرة، ما زالت تمثل التحدي الأكبر، حيث أن حساسية الموضوع تجعلها خارج إطار النقاش... وتجعلنا نتأرجح بين القناعة بخطأ الفاتورة ولزوم الضرورة... ضرورة الثقة المستمدة من التربية الدينية، والتي صعد بها البعض الى مصاف الكهنوت، وقد نهى الرسول عن (ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن)، متفق عليه وقال (من أتى عرافا فسأله عن شيىء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوما)، ولا يزيد الدخول في متاهة تعريف العراف... والكاهن... والمطوع، ولكن لا طاعة لمخلوف في معصية الخالق.

ان من مظاهر تردي الواقع العربي في هذا الزمان، أننا استسلمنا لعجزنا وسلس قيادتنا لغيرنا في كل الاتجاهات... وبات الفكر العربي بطيء الحركة في طريق المبادرة... وحتى لا يشطط بي الخيال في العتاب، يكفي أن نتذكر أن أوائل المستشفيات العقلية في العالم كانت في بغداد عام ٧٠٠م، وفي القاهرة عام ٨٠٠م، وفي دمشق عام ١٢٧٠م. وكان العرب يقودون حركة انسانية واسعة من أجل رعاية أفضل المرضى وظلت مؤلفات

الرازي والفارابي في مكانة متميزة، حتى مطلع القرن التاسع عشر حين بدأت النظرة الانسانية في أوروبا على يد علماء مثل بنيل في فرنسا ويتوك في انجلترا ودكسي في أمريكا، لانقاذ المرضى الذين كانوا يحرقون أحياء للتخلص من الشياطين الساكنة في أجسادهم، لأنهم يعتبرون الأمراض العقلية قوة ميتافيزيقية خارجة عن الجسم، كالأرواح الشريرة والجان والآلهة الخ...

والآن لم يتبق من قبس نور الهداية وعمل السلف الصالح، إلا أن نتجادل في شرعية الطاعة وحكم الاستطاعة، ودور المطوع وقدر المطيع... فالأول يكوي الجسم بالنار والثاني يقدم الطاعة بلا خيار وحتى المستطيع بالقول يردد (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)، والمتمكن من الفعل لسان حاله (ولا تزر وازرة وزر أخرى)، وليت قومي يعلمون أن الشرر المتطاير من (مراويد) المطوع كثيرا ما تقتل بقايا الخلايا النابضة في مخ الانسان... فاذا كان قدر المطيع (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فأن لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان)، فهل يدرك (المطوّع) أن (من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه). صدق الرسول الكريم.

ورحم الله أبا الطيب المتنبي الذي قال :

اذا أنت لم تعرف لنفسك حقها
هوانا بها كانت على الناس أهونا

خطر المظلة الكيماوية

كتب أحد الكتاب في إحدى الصحف اليومية، تعقيبا مقتضبا حول المذكرة التحذيرية التي بعثت بها هيئة الأبحاث الأمريكية الى الجهات الطبية حول ضرورة تشديد الرقابة على تصدير الملطفات والمهدئات النفسية الى الدول النامية... وشاءت الصدف أن تصلني نشرة طبية مماثلة من مجلس الأبحاث البريطانية، في نفس المعنى حول خطر المظلة الكيمائية التي يسير تحت ظلالها ملايين البشر في العالم دون استشارة طبية أو مشورة علمية.

وقد وصلتني في نفس الأسبوع، النشرة الدورية لهيئة الصحة العالمية تناقش مشكلة حوادث السيارات في الدول النامية، تحت عنوان (الطاعون الحديث)، كما تسلمت تقرير وقائع مؤتمر الاضطرابات النفسية المنعقد في شيكاغو بأمريكا حول احصائيات مرض الاكتئاب والقلق النفسي في أمريكا والدول النامية... وهناك عشرات التقارير والنشرات ولكن ما يستوجب الوقفة، أن التحذير موجه نحو الدول النامية، علما بأن الدول المتقدمة هي أكثر استعمالا لهذه العقاقير وأن اعداد المرضى النفسيين، يفوق عدد المرضى بكافة الأمراض الجسدية مجتمعة في احصائيات مركز الأبحاث الأمريكي في العام الماضي.